الفصل الثانى
أصول الفكر السياسى القديم

***الشخصية الأوروبية بين التأبى والخلط**
- **حظ اليونان والغرب من التحضر**
- **الرواقية والرواقيون**
- **بين المسلمين واليونان**

فى الشخصية الأوروبية:

*رأينا كيف تأبت الشخصية الأوروبية على الجرمان والعثمانيين فى عين الوقت الذى استفادت فيه من الصينيين والمسلمين وتليد اليونان والرومان ما أنبتت به نهضة أوروبية تحيى روح البحث والمغامرة والتحرر من الشوائب العالقة بالدين ؛ وكيف زودت العلوم والإصلاح الدينى العقل الأوروبى بالثقة فى النفس والإقبال على الحياة .

ثم رأينا كيف خلط صالح ذلك كله بتطرف هنا وهناك وأخذت أوروبا تضرب بأجنحة قومياتها المتنافسة ذات القوميات داخل أوروبا وخارجها وذلك فى أتون اندفاع نحو استعلاء واستعمار أظفر الحَكر والريث والنهازة فيه انجلترا بأمرين : ديموقراطية داخلية لا تقرها لغيرها . وهى بعد مجرد توافق أرستقراطى ملكى برجوازى يحيل الصراع على السلطة فى الداخل إلى أطموعات وغلبة إلى حين فى مضمار التوسع والاستعمار.

فقد وجهت انجلترا الصراع الداخلى فيها إلى التوسع فى أيرلندا وأمريكا والهند ومصر وغيرها ؛ ثم كيف مردت عليها أمريكا وأخذ غيرها فى الثورة وإن كانت برعت باللعب السياسى فى استغلال الشعوب التى أنطقتها أو كادت بلغتها فى تزويدها وحلفائها بجيوش من مستعمراتها لتحارب بها خصومها المتشبهين بها.

ظهر كيف برزت العنصرية بلونتيها الخاصتين فى إيطاليا وألمانيا فضلا

عن الشيوعية فى روسيا والهجومانية الإنجليزية بطبيعة الحال؛ وإذ أحوج الاحتراب العالمى الإنجليز إلى الشعوب التى احتلوها بررت الغاية الملحة الضرورة المذلة أيضا ومُنِّىَ اليهود والعرب والهنود والباكستانيون باستقلال ونحو ذلك ؛ وإن ظلت البيركية ممتدة فى تشرشل تبنى مصلحتها على بالى الدعاوى فى الهند وأيرلندا ومصر ووتتعلق بمجد قومى وتبهت بتحميل ألمانيا أو غيرها أعداد الضحايا المملينة فى إحصاء تشرشل وغيره.

لقد تبين أثر الغَبن الذى حاق بألمانيا بعد الحرب الأولى فى انهيار الاقتصاد والأخلاق فى ألمانيا وزرع العقد فى نفس هتلر الذى نجح فى تحريك الألمان والتمساويين بالفكرة العنصرية الهيجيلية لغزو أوروبا ومطاردة بريطانيا فى إفريقيا وغيرها كاليابان التى لم تسلم من التحيز ضدها بواسطة الثنائى الانجليزى الأمريكى مما أدى إلى انضمامها إلى الألمان وقرمها لاستعمار الصين وغيرها هى الأخرى إلى آخر ذلك من إبادة مدنتين بالذرة لأول مرة فى التاريخ.

هكذا بسبب التطبيق الحيوانى للأفكار الفلسفية والاقتصادية المتطرفة خسرت الإنسانية أمنها وتروتها وكثيرا من قيمها مما غطى على الفكرة الإنسانية الأخلاقية وأحيا الماكيافيللية تطبيقية جذعة فى النصف الأول من القرن العشرين ؛ وإن كان ناقوس الفكرة الإنسانية لم ين وقد زواه الطغيان فى زاوية ضيقة –أشبه بزاوية التضييق على أفكار حقوق الإنسان فى آننا الراهن- لم ين يشرئب يبشر بالأخوة الإنسانية والحفاظ على الحضارة.

مبلغ حظ اليونان والتمدن الغربىالحديث:

رأينا مبلغ حظ اليونان من التقدم بالإنسانية فى المجال الحقوقى السياسى حيث أخذوا بالانتقائية فى مبدأ خضوع الأقلية لرأى الأغلبية ؛ وذلك بإيثار من أثروا بحق المواطنة دون غيرهم فى أثينا واسبرطة، وعرفنا نظرة اليونان إلى غيرهم من الأمم بصفة عامة وآثار هذه النظرة فى التاريخ الغربى فى مجمله وفى القمى الاستعمارى خاصة.

ولقد ينظر اليوم إلى مبادئ حقوق الإنسان المعلنة بعد الحرب العالمية الثانية كما ينظر إلى تحرير العبيد فى أمريكا وأوروبا فى التاريخ الحديث على أنها ظاهرة أو مبادئ فريدة أو جديدة على التحضر الإنسانى. وكلتا الحركتين : اليونانية والمحدثة لا يستطاع ربطهما بدين ما ربطا محكما بل ربما عدتا من صنع العناء البشرى والاجتهاد الفكرى والمصلحى العلمانى وحده .

الفكر الرواقى:
أوردنا امتياز المنطق الرواقى بأنه منطق حس لا يعترف إلا بوجود الأشخاص وينكر إسناد الأرسطية الماهيات إلى الجنس والفصل . والحد عندهم هو تعديد الصفات الخاصة لكل موجود فقط.
فما الرواقية مذاهب وأشخاصا؟
الرواقية Stoicism مذهب مثالى إلى حد التطلع إلى عالم عال على الفساد أو الانحلال. انتشر بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثانى بعده.

ابتكرها واعتنقها مفكرون من بلدان مختلفة:
- كزينون Zeno وتلميذه برسة Perse من كنتيوم فى قبرص
- كريزيب وتلميذه انتيبار وكذلك أرخميدس ويوريتوس من صيدا
- كليانت من أفسس
- وديوجين البابلى
- وأبودور السلوسى وهو كلدانى أيضا
- بوزيدونيوس السورى وهو أستاذ شيشيرون وصديقه الحميم
- ثم سينكا وابيكتيتوس وغيرهم ممن ذكرنا أنهم تعاطوا الحكمة فى حوض المتوسط.

والفلسفة عندهم – فى قضايا على عبد المعطى- علم الأمور الإلهية والبشرية معا. ومهمتها هداية الإنسان إلى معرفة منزلته ومكانته فى

الكون وإعداده لممارسة الفضيلة الحقة [١] .

لم يبال **"ايبوكتيتوس"** بما ليس للإنسان دخل فيه مما ليس من صنعه وعد من ذلك الثروة والحكم باعتبار ذلك من صنه االه وإنما احتفل بما يتغلغل فى أعماقنا كالإرادة والرأى فى المحبة والكراهية. ومحاورته الأدبية للطاغية – كما تبدو لنا- نقد لبق لأعمال الطاغية يذكرنا بأسلوب بيدبا الفيلسوف فى ترجمة ابن المقفع له عن الهنديةأو غيره من كتاب المسلمين ممن كتبوا فى أدب الحكم والاجتماع ووعظوا الحكام بالقول اللين غير المنافق؛ ولعل منه ما أوردناه من تعريف عالم إفريقى فقيه مسلم تحت عنوان "المداورة" فى القرن التاسع عشر [٢] .

وقد تبلورت الحكمة الرواقية عند **"ماركوس أورليوس"** فى أنه ينبغى فى الحاكم أخلاقيات رفيعة وكبح جماح وضبط نزوات وتواضع وحلم وأن يكون إنسانا يعامل الآخرين كإنسانيين وأن يؤدى شئون الحكم بنفسه ولا يستمع للدساسين وأن يكب على العلم ويقرب العلماء ويتمرس بالحكمة ويؤمن بالحرية.. ويقود الإمبراطورية كأب ويمنح رعاياه حبا وعطفا . يوضح عباراته ويحدد أوامره . لا يطغى ولا يعد بما لن ينفذه . يصحح أخطاءه ويحب العدالة . وأوجب على الإنسان بصفة عامة أن يفهم ظاهرة العلة والمعلول فى الطبيعة ويؤدى دوره وفق قانونها وهو مؤمن بقيمة الإرادة ودور العقل ومسئولية الإنسان [٣] .

وما زال مثل هذا الضرب من التأليف شائعا فى الثقافة العربية وإن قيدت التعميم فى التوجيه الأخلاقى والروحى فيه بمبادئ الشرع الإسلامى تقنينا منهجيا تنظيريا كما فى الرسالة للشافعى وتقنينا تطبيقيا تقعيديا كما فى أصولى الكلام والفقه فضلا عن الدساتير التطبيقية المقترحة من قبيل دستور المغيلى فى الإمارة أو كما فى الفقه المالكى والحنفى والشافعى والظاهرى والفودوى الخ.

---

[١] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....، ص ١١٨،
[٢] كتابنا هذا (القومية المحافظة فى الشرق)
[٣] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....، ص ١٢٧- ١٣٠

ويعتبر "شيشيرون" مثلا للمفكر الرومانى الذى تأثر بالفكر الرواقى . وقد أعلى من من شأن القانون ؛ ولكنه عرف السليم منه بموافقته العقل والطبيعة الإنسانية وخالف أفلاطون وأرسطو فى نظرهما إلى الإنسان باعتباره مجرد حيوان اجتماعى سياسى بالطبع؛ فاتخذ فكرة المحبة رابطة اجتماعية وسياسية وبها أثر فى تفكير آباء الكنيسة وأضفى على مفهوم الشعب الأفلاطونى الأرسطى مسحة إنسانية أعم .
فقد رأى أن لكل إنسان فى الدولة الحق فى قدر محدد من الكرامة الإنسانية والاحترام بوصفه بشرا يملك العقل والطبيعة الاجتماعية.

وقد حازت مبادئ شيشيرون العامة فى الحكم – وهى التى تؤيد انبعاث السلطة من الشعب- ودعم الممارسة القانونية لها بالسند الإلهى والأخلاقى. حازت هذه المبادئ تأييدا مطلقا بعد مدة قصيرة من بدء دعوته وظلت من بديهيات الفلسفة السياسية خلال قرون عديدة.

حيث قصرت النظم عن تطبيق حلم شيشيرون ومن قبله "بوليبوس" بالقانون المختلط الذى يجمع بين ميزات الملكية والأرستقراطية والديموقراطية فى إطار دستور مختلط على النحو الذى طبقته دولة المدينة الإسبرطية [1] ؛ وارتآه أرسطو (الحكومة الوسطية) وربما "چون كالفن" فى أخذه بمعيار (المصلحة دون نوع الحكومة) ؛ لم يمكن مع القانون المختلط القضاء على مشكلة الصراع على السلطة ونزاع الطبقات.

ويمثل **"سينيكا"** الفكر المسيحى الفلسفى النافر من الحكم. ولد فى السنة الرابعة قبل الميلاد واضطره تلميذه نيرون على الانتحار فقطع شريانا له وأخذ يلقى خطبه ودمه ينزف ؛ فلم يعلق أملا على روما لتحقيق الإصلاح خلافا لما رآه شيشيرون وغيره ؛ ولم ينافق الشعب بل ذكر أن فساد الشعب غدا أشر من فساد الطاغية ودعا إلى التغلب على النفص فى جميع نظم الحكم بقيام الرجل الصالح بواجبه المعنوى وأطرى الحياة الفطرية.

[1] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....،ص ١٠٧- ١٠٩

وقد وصف فى رسالته التسعين تلك الحياة بعبارات بليغة أشبهتها عبارات "جان جاك روسو" فى القرن الثامن عشر .

فالإنسان عند سينيكا قد كان فى حال الفطرة سعيدا هانئا لا يحتاج إلى ممرض أو طبيب . يرضيه القليل . كل ما يرجوه : الطعام والأنثى والنوم. يتسم بالبراءة الكاملة وعشق الحياة البسيطة الساذجة الخالية من كماليات الحضارة وتكاليفها ومظاهرها ؛

أى أنه سبق المعرى القائل: " إن الغفة من العيش لتغنى المجتهد عن البرى والريش".

لكن سينكا لم يربط الاستعلاء بالطموح الطبيعى كما فعل المعرى ولم ير مثله فى الحياة (قانون الدفع بالقدَر اللاحق بدل القدَر المقدر قبل) [1] الذى استسلم له الرواقيون لا غير؛ وهكذا اقتصر سينيكا على أن عزا ظهور الآثام وتحول الحكام إلى طغاة إلى ما استيقظ فى نفوس الناس من الرغبة فى التملك والحيازة (وأحال وخلط)؛ فعزا ظهور ضروب الرفاهية والفساد والملق وانعدام الأخلاق إلى تقدم العلوم والفنون . وعد القانون نتيجة لكل ذلك ليحد بالقسر والإرغام من مساوئ البشر ومفاسدهم.

ولا يقلل من قيمة نزعة سينيكا افنسانية هذه The Sinicism أنها

---

[1] للمعرى جملة جامعة لأربع أفكار ثمينة صانها بيانها البليغ من لبِلى ومن التحريف تقول:
"وما زال الشبان المحسون من أنفسهم بالنهضة يبغون ما شرف من المراهص
وكيف بالسلامة من الواهص
والمثل السائر: رأى الشيخ خير من مشهد الغلام
وربما سار الطالب سورة فواجهت من القدر زورة"
- إلى قولة : إن الغفة من العيش..... السابقة فى عرضنا.
الشاهد من قبيل التأمل فى ظاهرة الطموح السياسى . أورده المعرى صدد الوزير أبى الحسن المغربى المقتول فى مؤامرة لقلب حكم الفاطميين فى مصر. قتله الحاكم بأمر الله -كما لقب نفسه- سنة ٤٠٠هـ
١ أبو العلاء المعرى/ رسالة الغفران بتحقيق عائشة عبد الرحمن ، ط ٣، ص ٥٣٤ وما قبلها.
- والشاهد يعزز القول باهتمامات المعرى السياسية سواء فى مقولة حكم المعرى حكومة زهد وورع وبراءة أو فى مقولة انخراطه فى جماعة إخوان الصفاء .
- وراجع: عبد الحكيم العبد/ أبو العلاء المعرى ونظرة جديدة إليه ١٩٩٣م،

اعتبرت أساسا لنزعة اليوتوبيا الحالمة بمجتمع خيالى يسمو على الانحلال والفساد [1] ؛ و;كما هو وسمها عند الرومانسيين .

بين اليونان والمسلمين (استنارة اعتقاد وعمل ومناصحة للحاكم):
ويستلفت انتباهنا فى تاريخ التحضر الإنسانى ثلاث تيارات من الاستنارة والاجتهاد البشرى فى سبيل التقدم أحدها قديم اهتدى إليه الحنفاء ، وثانيهما وسيط عرف به المسلمون والمفكرون العرب وآخرها هو الحديث العلمانى الذى ربما أسهبنا فى عرض معالمه ومظاهر تطوره عارضين لحسناته وسلبياته وأفدحها التعصب والاستعمار.

لكن الواقع أن الفكر الإنسانى الرصين المتواضع أو العلمى الأخلاقى لم يزل من ساحة الحضارة رغم استعلاء نزعة النفَج الإمبراطورى والديموقراطى أو الشعوبى والعنصرى منذ قيام اسبرطة وأثينا إلى قيام إيطاليا وفرنسا وتركيا أو غيرها حديثا.

فجذور هذا الفكر الخالد ضاربة فى التاريخ كما أنها لم تذب فى تربة الأفكار العنصرية السبخة وليس يجوز صبها فى إطار قومية من القوميات ولإن جرى العرف غير المدقق على نسبتها إلى أمة من الأمم كاليونان أو العرب.

ولقد نقف عند الكتاب المسلمين فى العصور الوسطى على ثمين من هذه القيم والآثار كما نقف على غيره. لكنه يظل لأجيال العلماء المسلمين المتعاقبة ولاسيما فى القرن السادس الهجرى وما بعده فضلهم فى التمحيص والنقد والنخل الحريص لتراث الإنسانية فى مجالات الاعتقاد والعمل مما جلا للإنسانية فكر الحنفاء وجهود حكماء وفلاسفة العصر اليونانى وصلحاء الفرس وخلاها من شوائب السفسطائية والروحية والمادية وغيرها.

---

[1] على عبد المعطى محمد/ الفكر السياسى الغربى.....،١١٣- ١١٥
The Encyclopedia Americana, vol. 24, (Seneca, Lucius(4 B.C- 65 A.D.) +

إن **أهم سمة لحركة الاستنارة الإسلامية** هذه جمعها بين الاعتقاد فى التجريد والتجريب على السواءأو مكاملتها بين الدين والعلم أو بين العلم بخصائص الوحى والنبوات وحقائق الكون المادية المختبرة بالتجربة مع مقدرة تحليلية فذة على **إدراك التوافق ورد الشبهات** والأوهام فى النحل المدخولة والزائفة. وهذا كثير وقف علي قليل منه علماء النهضة الأوروبية الحديثة .
ومن ذلك ما ذكره الشهرستانىفى الملل والنحل من **"ذكر حكَم هرمس العظيم"** فقد أخرجه من جملة الصابئة لما رآه فى حكمه مما يدل على تقرير مذهب الحنفاء فى إثبات الكمال فى الأشخاص البشرية وإيجاب القول باتباع النواميس الإلهية .

وهرمس العظيم هذا فى قوله (بل فى رؤيته) " يعد من الأنبياء الكبار ويقال هو إدريس... عليه السلام وهو الذى وضع أسامى البروج والكواكب السيارة ورتبها فى بيوتها وأثبت لها الشرف والوبال والأوج والحضيض والمناظر بالتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقاربة والرجعة والاستقامة وبين تعديل الكواكب وتقويمها" [١] ؛ مما عده الشهرستانى مما يبرهن عليه أى يستدل عليه بالبحث العلمى أو التجربة بلغة عصرنا.

وليس وصف الشهرستانى للنبوة القديمة بالعلمية كوصف الأوروبيين للعلمنة الحديثة بالنبوة كما يطلقون مجازا على أصحاب الاكتشافات العلمية [٢] . لاختلاف الإيمان فى العصرين [٣]

والدى يثبت عندنا أن الشهرستانى يثبت أساس الاستنارة فى كتابه قوله الصريح **برفض ما لا يثبت بالبرهان؛** ونصه: " وأما الأحكام المنسوبة إلى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع" . ولذا نوه "بطريقة .. الهند والعرب" فى الأحكام التى "أخذوها من خواص الكواكب لا من

---

[١] الشهرستانى/ الملل والنحل ، هامش الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ، ج ٢، ص ١٤٢، س ١٣- ١٨، دار الفكر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

[٢] The Encyclopedia Britannica (science)

[٣] التعريف بإيمان القرن الثامن عشر وغيره - إدموند بيرك – وتحت مصطلح الألوهية ؛ بالدراسةبالدراسة

طبائعها ورتبوها على الثوابت لا على السيارات" ؛ أى على النجوم وهى الشموس التى تدور حولها الكواكب فى دورانها دون الكواكب التى هى توابع لها.

واجبات الفاضل: دينا ودنيا:

ذلكم هو النظر العلمى العملى الذى طرب له الباحث وتثبت به لإيمانه وعزز لديه معنى الدين والشريعة ولم ينقضها أو لم يجد العلم ما ينقضه منها لموافقتها العقل والحدس الصحيح. ولذا اعتد بما أورده منها لهرمس . والذى يعنينا جسم الجملة الباقى على الزمن قال: "قال هرمس: أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعه المحمود بسنخه المرضى فى عادته المرجو فى عاقبته تعظيم الله عز وجل وشكره على معرفته وبعد ذلك فللناموس عليه حق الطاعة والاعتراف بمنزلته" .

ومما ندخله فى بابى السياسة والاجتماع فى أعصارنا من بعد هذا الجيل ما أورده الشهرستانى لهرمس أيضا من العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى قوله: "وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ولنفسه عليه حق الاجتهاد والدأب فى فتح باب السعادة ولخلصائه عليه حق التحلى لهم بالود والتسارع إليهم بالبذل (و) كف الأذى عن العامة وحسن المعاشرة بسهولة الخلق" [1] .

وهو ما رأيناه دساتير متوالية فى شكل كتابات رواقية نشفع بها ورسائل إسلامية شتى.

[1] الشهرستانى/ الملل والنحل ، هامش الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ، ج ٢، ص ١٤٢، س ١٣- ١٨، دار الفكر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، هـ ج٢، ص ١٤٢، ١٤٣